من عندهم إلا معموراً بسوء الظن بعباد الله، والتكبر علىٰ الضعفاء المساكين، وترك «لا أدري» التي هي نهاية العلم.

وصاحب المتصوفة الجاهلين لا يخرج من عندهم إلا مملوءاً بالدعوىٰ، والرضا عن النفس، والبدعة في الدين.

وأما الجبابرة الغافلون: فلا يخرج صاحبهم من حضرتهم حتىٰ يكون متكبراً متجبراً علىٰ عباد الله، قاسي القلب غليظ الطبع، رافعاً لنفسه فوق رأسه، واضعاً لورحه تحت قدميه، معموراً بالطمع كل ما يرىٰ يريد أن يأخذه لصاحبه.

ولما لقيت شيخنا الهمام، العارف بالملك العلام، سيدنا ومولانا العربي بن أحمد ـ الشريف المنيف ـ الدرقاوي، الحسني ـ رضي الله عنه ـ، ونفعنا ببركاته آمين ـ بحضرة فاس ـ حرسها الله من كل بأس ـ عام ستة وتسعين ومائة وألف، وقد أخبرني بفضل الله قبل قدومي عليه ـ رضي الله عنه ـ والسبب في ذلك أنه كان هناك مع إخوانٍ له في شيخه، فانحرفوا عنه بعد موت الشيخ، وادعىٰ كل واحد منهم بالدعاوي الكثيرة، ومن جملة الدعاوي أن جعلوا الشيخ منهم علىٰ وفق نفوسهم، وكان شيخنا ـ رضي الله عنه ـ ينصحهم، ويذكرهم، ويجلس لهم مع الباب الذي ينزل فيها البلاغي.

وكانوا ـ لطف الله بنا وبهم ـ لا يقبلون منه المشيخة، إلا أن كلامه كانوا يقرونه كثيراً لأن الحق لا يرده أحد[1]. ولكن لما غلب الحسد علىٰ قلوبهم

---

(١) وانظر إن شئت رسائل سيدي ومولاي العربي بن أحمد الدرقاوي رضي الله عنه وأرضاه وعنا به، وقد تشرف كاتب هذه السطور بخدمتها، وهي من مطبوعات «المجمع الثقافي بأبو ظبي» تجد فيها مصداقاً لهذا الكلام ففيها كل عجيب، لكن قراءتها علىٰ يد شيخ أولىٰ ثم أولىٰ، ففيها من علوم القوم وأحوالهم ما يحتاج إلىٰ شيخ تربية ذي حال وعلم وذوق.

كانوا لا يسمعون منه شيئاً بقلوبهم، ولو سمعوا بالقلوب لانقادوا لحضرة علام الغيوب. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. فلما أيس من هدايتهم خرج يوماً بنية أن لا يعود إليهم، فبينما هو مارٌ في بعض أزقة المدينة المذكورة وهو يقول في نفسه: هذا المريض الذي بين يدي عالجته بكل العلاج، إن كان للموت يموت، وإن كان للحياة يحيا، وقد تعذر من يصحبني في هذا الفن، يا رب.

قال ـ رضي الله عنه ـ: فإذا النداء من قبل الله تعالىٰ يقول: «سيأتونك أهل هذا الطريق من البحار، ويخلقون لك من الحجار» فما بقي بعد هذا إلا أياماً قلائل وأنا عبد الله قدمت عليه بإذن ولي من أولياء الله تعالىٰ، وذلك بعد أن تعلق قلبي بملاقاة القطب الكبير، وكنت أطلبه في كل سجدة، إلا نادراً. وكنت ـ والحمد لله ـ مشتغلاً بذكر الله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا ومولانا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم تالياً لكتاب الله عز وجل، معتزلاً بنفسي في الخلاء، مصلياً، قائماً، وصائماً. وكان ذلك الولي يحبني غاية المحبة، وكنت لا أرضاه شيخاً، فلما رآني تعلقت همتي بغيره. وأردت المسير إلىٰ مكة لكون الناس يقولون: القطب الكبير هو بها، أبداً.

فلما علم مني هذا الولي ذلك، قال: يا أخي! هو بفاس، عليك به، وهو فلان الفلاني، فقصدته في الحين مسرعاً، فوصلت لفاس، وسألت عنه، فلم أجد له خبراً، فلم أزل أفتش وأسأل حتىٰ وصلت إلىٰ باب داره، ونقرت الباب. وخرج إليّ ـ رضي الله عنه ـ مسرعاً، فقبلت يده الكريمة، وطرفه الشريف.

فقال لي: من أين جئت؟

قلت له: يا سيدي! من البحر.

فقال: من أين البحر؟

فقلت: من جبل أشقر.

فقال: ما تريد عندنا؟

فقلت: أردت أن أكون ببركاتك سلطان الآخرة.

فقال: أعطيناك سلطنة الدنيا والآخرة، فدخل مسرعاً لداره. وقال لي: ادخل، فإن مثلك لا يترك خارج الدار، فأدخلني ورحب بي، وأجلسني علىٰ سجادته التي كان يقعد عليها في خلوته، وأطعمني، وسقاني، وجعل يحدثني ويوصيني.

فمن جملة ما أوصاني به ـ رضي الله عنه ـ أن قال لي: «**يا ولدي! احذر من صحبة ثلاثة من الناس: المتصوفة الجاهلين، والقراء المداهنين، والجبابرة الغافلين**». فما صحبت أحداً من هذه الثلاث إلىٰ الآن، والحمد لله رب العالمين.

وكان عليه ـ رضي الله عنه ـ ذلك الوقت مرقعة ما رأيت أهون منها في المرقعات، وكان يظهر منها الكثير من جسده الأعلىٰ رضي الله عنه. وما رأيت في داره ما يساوي درهماً سوىٰ سجادة بسطها لي، وزلافة[1]، وإبريق لا غير. وكان مع هذا إذا فتح الله عليه بشيء تصدق به، ويدخل علىٰ أهله بلا شيء!. ففي مثل هؤلاء ـ رضي الله عنهم ـ قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «ما تركت لعيالك يا أبا بكر؟!. قال: تركت لهم الله ورسوله»[2].

---

(١) **الزلافة**: إناء من الفخار، أو المعدن، ما يعرف اليوم في مصر بالسلطانية، وجمعها: زلايف، والمادة عربية. انظر: «معجم شمال المغرب تطوان وما حولها» ص٩٧.

(٢) في الحديث المروي: «صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل»، وقال ابن أبي حاتم في قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتىٰ دفعه إلىٰ =

وكان لا يعرفنا أحدٌ في ذلك الوقت غير بعض إخواننا قليلين من أهل فاس، كانوا يعرفون شيخه. وكانوا يجتمعون معنا بالنهار، وبالليل يذهبون إلىٰ ديارهم، وكنت في الزاوية وحدي أياماً عديدة، ففتح الله بعد ذلك في الإخوان والأحبة.

وكنا في ذلك متصلين الذكر والمذاكرة. وكنا لا نعرف الليل من النهار بعض الأيام إلا بالأذان في الصومعات.

ومن شدة بقائه ـ رضي الله عنه ـ كان يلقاني بقرب المغرب برحبة قيس، وكان حالنا من بعد صلاة العصر نخرج لخدمة نفوسنا للتذلُّل بين أقراننا، نسأل الفلوس من الحوانيت، فإذا التقينا عند المغرب برحبة قيس نشتري ما نتقوت به في الوقت، فيأتي إلىٰ صاحب الخبز أو البصل، أو غيره، فيشتري منه بأربعة فلوس، أو بستة فلوس، أو ما أشبه ذلك، فيزيده قدر ذلك علىٰ القيمة، وهكذا كنا أياماً عديدة، وكان يدلني علىٰ السخاء وحسن الخلق، والزهد، أكثر من كل شيء.

وكان يقول لي ـ رضي الله عنه ـ: يا ولدي! الرجل هو الذي يشتمه الناس كلهم اختياراً عن طيب نفس، وهو يفرح لذلك، والشماتة هو الذي يحب أن يشمت الناس كلهم، لأن الرجال عملهم مع الله تعالىٰ، والشمايت عملهم مع نفوسهم.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يحبني أشد من حبه لأهله وأولاده.

= النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟» فقال: عدة الله وعدة رسوله، فبكىٰ عمر رضي الله عنه وقال: «بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلىٰ باب خير قط إلا كنت سابقاً».

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: والله واحد! ما شد لنا أكتافنا في الله مثل محمد بن أحمد البوزيدي.

وبالجملة: مدحه لنا بقدر ذمنا وقبحنا وأكثر، وأكثر، والسلام[١].

(٦١)

ومن أدب المريد الصادق: أن لا يجاور شيخه إلا إذا كان خادماً له[٢] قائماً بكل ما يحتاج إليه الشيخ من رعاية المواشي، والحرث، والحطب، وسقي الماء، وطحن الرحا، وكنس الزاوية، وحق الدار، والأرواء[٣]، وسائر ما يخدمه المماليك وأكثر، لأن هذا طالب رضا الحق، والمملوك طالب رضاء الخلق، قل من المماليك من هو طالب رضاء الحق في الخلق. أدب المملوك بالقهر علىٰ نفسه، وأدب الفقير اختياراً عن طيب نفسه، وشتان ما بينهما.

---

(١) وقال في تذكرة المحسنين في ترجمة سيدي محمد البوزيدي: «وفي بداية أمره كان تائهاً في قرون الجبال معتكفاً علىٰ العبادات إلىٰ أن دخل بعض الكهوف فوجد جماعة يعبدون الله لا يدري من هم، فجلس يعبد الله كعبادتهم واشترك معهم في المذاكرة فسمع منهم ما لم يقع له بمسمع أبداً، فكان مما قاله لهم: سألتكم بالله من أنتم ومن شيخكم؟ فقالوا: نحن طائفة من مؤمني الجن وشيخنا بفاس يقال له: مولاي العربي، وإنا نحضر معه في مجالسه لكن بآخر القوم ولا يرانا غير شيخنا، وإذا تكلم علىٰ الناس يرفع إلينا رأسه حتىٰ نسمع حديثه، ولنا معه عادة إذا دخل المسجد ترك نعله متوجهاً لناحية الدخول، فإذا أراد الخروج نهيئها له فنستقبله بها، فنهض من حينه وقدم علىٰ فاس وسأل عن مولاي العربي فدل علىٰ رجل محترف يعمل السلل من القصب، فجاءه ولازمه فلم يجد شيئاً من ذلك، فرجع إليهم، فأخبرهم فبينوا له أن شيخهم مولانا العربي الدرقاوي رضي الله عنه، فجاءه فكاشفه رضي الله عنه بذلك، وأخذ عنه ولازمه، فرأىٰ ما أخبره به الجان، وظهر له الفتح الكبير، رضي الله عنهما ونفعنا بهما آمين.

(٢) وذلك لأنه كما قيل: «كثرة المساس تميت الإحساس» فإن كثرة المعاشرة للشيخ دون حفظ القلب والحشمة ظاهراً وباطناً تقلل من هيبة الشيخ في قلب المريد، ونتيجة لذلك يقل نفعه للمريد، ويقل تأثير الشيخ عند مريده بسبب العادة.

(٣) **الأرواء**: أي محل ربط الدواب.